مجلة الجمعية العلمية الايرانية للغة العربية وآدابها، فصلية محكمة، العدد ٢٢ ، ربيع ١٣٩١هـ.ش/٢٠١٢ صص١-٢٤

تحليل خطاب إخوان الصفا فى قصة تداعي الحيوان على الإنسان

هومن ناظميان[١]

الملخص

شهد القرن الرابع الهجري إزدهاراً ثقافياً وحضارياً رائعا فى شتّى مستويات حياة المسلمين؛ حيث ازدهرت نشاطات علمية وفلسفية وأدبية خاصة فى الشرق الإسلامي. في هذه الأجواء نشأت جماعة إخوان الصفا السرية الذين كانوا قائلين بضرورة إدماج الفلسفة اليونانية فى الشريعة الإسلامية لغسلها ممّا اعتراها من الجهل والضلالة. فألفّوا أثراً موسوعياً ضخماً يشتمل على إثنتين وخمسين رسالة ونشروا عقائدهم خلالها واتخذوا القصة وسيلة لنشر عقائدهم بعض الأحيان؛ من أشهرها قصة تداعي الإنسان على الحيوان فى الرسالة الثانية والعشرين.

درسنا هذه القصة على أساس البنية الفكرية والعقائدية لإخوان الصفا والآراء التى طرحوها فى تبيين معتقداتهم فى شتى مجالات الإجتماعية والسياسية والعقائدية لتبيين ركائز خطابهم فى هذه القصة. تبين هذه الدراسة أن خطاب إخوان الصفا في هذه القصة خطاب نقدي يشمل معظم شرائح المجتمع العباسي في القرن الرابع ويرتكز على ركائز منها النزعة العقلانية، النزعة المثالية، النزعة الصوفية والنقد الإجتماعى والسياسى للمجتمع البشرى عامة والمجتمع العباسى خاصة.

المفردات الرئيسة: تحليل الخطاب، إخوان الصفا، النقد الإجتماعي، النقد السياسي.

---

١. أستاذ مساعد فى جامعة تربيت معلم (الخوارزمي) بطهران (فرع كرج) Houmannazemyan@yahoo.com

تاريخ استلام البحث: ٨٩/٧/٤ تاريخ قبول البحث: ٩٠/١١/٦

Archive of SID

www.SID.ir

المقدمة

كل نص أو كلام يحتوي على معلومات كثيرة؛ ولهذا ينبغي أن يعتبر النص أو الكلام كموضوع معرفي، ولدراسة هذه المادة نحتاج إلى أسلوب (شعيري ،١٣٨١، ٣). أصبح تحليل الخطاب من أهمّ أساليب دراسة أنواع الكلام والنص فى شتّى الحقول المعرفية من الدراسات الإجتماعية والسياسية والدينية والأدبية وعلم النفس والتاريخ والفن و... هذا التنوع جعل مفهوم الخطاب متعدّد الجوانب والأبعاد؛ حيث نواجه خطابات مختلفة فى حقول معرفية متعددة مثل خطاب السلطة والخطاب السياسى والخطاب الإيدئولوجى والخطاب الإعلامى والخطاب الأدبى و... وهذه المجالات المتنوعة زادت مفهوم الخطاب إبهاماً وغموضاً.

حاولنا فى هذه المقالة أن ندرس خطاب إخوان الصفا في قصة من نودار التراث الإسلامى وهي قصة تداعي الحيوان على الإنسان في الرسالة الثانية والعشرين من رسائل إخوان الصفا. دُرِست هذه القصة ــ حسب اطلاع كاتب هذه السطور – سلفا في إطار تحليل العناصر القصصية لها فى مقالة تحت عنوان: «دراسة البنية القصصية لقصة المناظرة بين الإنسان والحيوان والجن فى رسائل إخوان الصفا» فى مجلة العلوم الإنسانية الدولية، العدد ١٦ (٣)، الخريف ٢٠٠٩». علاوة على هذه، قد أجريت ثلاث دراسات حول إخوان الصفا فى المجلات الجامعية المحكمة: «بينش سياسى ــ اقتصادى اخوان الصفا»، حميد عنايت، اطلاعات سياسى واقتصادى، ١٣٧٧، شماره ١٢ و«نظريه اخوان الصفا درباره چگونگى پيدايش كثير از واحد»، عين الله خادمى، مقالات وبررسى ها، بهار وتابستان ١٣٨٣، شماره ٣٧ و«اخوان الصفا، ابن مسكويه وبيرونى ونظريه تكامل زيستى»، حسن مياندارى، متافزيرک (مجله دانشكده ادبيات وعلوم انسانى اصفهان)، بهار وتابستان ١٣٨٨، دوره جديد شماره ٤٥.

إنّ هذه الدراسة تهدف إلى تحليل خطاب إخوان في القصة نظراً إلى ما طرح خلالها من الآراء والمعتقدات والنقد الإجتماعي والسياسي على لسان الجن والحيوان عبر دراسة أبرز محاور القصة والأجزاء الرئيسة التي تبيّن معتقدات إخوان الصفا واستنباط ركائز خطابهم مستشهدةً بنماذج من القصة نفسها.

Archive of SID

www.SID.ir

الخطاب

الخطاب مفهوم متعدد الجانب والمعنى، وقد حيث اكتنفه الإبهام والغموض خاصة بسبب تنوع الحقول العلمية والمعرفية التى تتصل بهذا المفهوم مثل اللسانيات والدراسات الأدبية والفلسفية والإجتماعية والسياسية وعلم النفس والتاريخ والفن (مک دانل،٩). لفظة الخطاب (discourse) مأخوذة من اللفظة الفرنسية (discous) وهى بدورها مقتبسة من اللفظة اللاتينية (discursus) بمعنى الحوار والكلام (*المصدر نفسه* ،١٠).

كان اللساني الإنكليزي زليک هريس رائد دراسات الخطاب فى ١٩٥٢ م هو الذي وسّع مفهوم الخطاب إلى مجال أوسع من الجملة ولهذا كان تحليل الخطاب فى بداياته مرتكزاً على الألسنية لكنه تجاوز فى ما بعد إلى الإهتمام بالجوانب الإجتماعية والثقافية (يقطين، ١٧ و١٨).

تعدّد مفهوم مصطلح الخطاب بتعدّد تصوّرات المهتمّين به؛ إذ تنوّعت المنطلقات نتيجة اختلاف فهم المهتمين على وفق التطور في ما أنتج في مجال نظريته. تنبع هذه التعاريف من اتجاهين: الإتجاه الألسني والإتجاه الإجتماعي. في الإتجاه الأول نواجه تعاريف ترتكز على التعريف بالخطاب في إطار مفاهيم الألسنية، منها هذه النماذج:

– على المستوى اللغوي يشير مصطلح الخطاب في معناه الأساسي إلى كل كلام يتجاوز الجملة الواحدة سواءاً كان مكتوباً أو ملفوظاً (الرويلي، ١٥٥).

– الخطاب مصطلح مرادف لـ (الكلام) parole كما عرّفه دي سوسير.

– الخطاب وحدة لغوية ينتجها المتكلم تتجاوز أبعاد الجملة أو الرسالة كما عرّفه هاريس.

– الخطاب وحدة لغوية تفوق الجملة تولد من لغة جماعية كما عرّفه بنفست (بدري الحربي، ٣٩ و٤٠) وهو يعرّفه أيضاً: الخطاب هو استخدام اللغة عبر استعمال فردي (شعيري، ١٣٨٥، ١٣) وهو في هذا التعريف يؤكد على ثلاث نقط: أولا التأكيد على الدور التوظيفي للغة في تكوين الخطاب، ثانيا التأكيد على مبدع يكوّن الخطاب وثالثا التأكيد على استخدام اللغة التي يمكن إعتبارها بحثاً في المخزون الثقافي والفكري للمجتمع (*المصدر نفسه*،١٣).

إذا تجاوزنا إتجاه اللسانيات ندخل مجال الدراسات الإجتماعية، ومن هذا المنطلق، الخطاب هو مجموعة من النصوص والأقوال ذات النظام والتنظيم ويشير إلى نظام فكري يتضمن منظومة من المفاهيم والمقولات النظرية حول جانب معين من الواقع الإجتماعى بغية تملكه

Archive of SID

www.SID.ir

معرفيا ومن ثم يفهم منطقه الداخلى. (بدري الحجي،٤٠) وعلى صعيد الدراسات الإجتماعية والإيدئولوجية يحدد الخطاب في إطار وظائفه الإجتماعية ومشروعه الإيدئولوجي ويعرف بأنه «الطريقة التي تشكل بها الجمل نظاماً متتابعاً تسهم في نسق كلي متغاير ومتحد الخواص وعلى نحو يمكن معه أن تتآلف الجمل في خطاب بعينه لتشكل نصاً مفرداً وتتآلف النصوص نفسها في نظام متتابع لتشكل خطاباً أوسع ينطوي على أكثر من نص مفرد» كما يشير هذا المصطلح إلى مجموعة من المفاهيم والمقولات النظرية حول جانب معين من الواقع الإجتماعي بغية تملكه معرفيا (*المصدر نفسه*، ٤٠). وحسب رأى كريس بالديک لمفهوم الخطاب معنى واسع حيث يشتمل على كل نوع من الكلام أو النص وكل استخدام للغة فى أى حقل من المعارف البشرية (مک دانل، ٢١).

قصارى القول أن مصطلح الخطاب استعمل طوال الآونة الأخيرة بمعان مختلفة وفى الوقت نفسه متقاربة يمكن تلخيصها فى ثلاثة تعاريف رئيسة:

١- الخطاب وحدة لغوية لها معنى وهدف وعناصرها مترابطة.

٢- الخطاب حصيلة الإرتباط بين منتجي الحوار خلال بنية إجتماعية ثقافية.

٣- الخطاب هو فعل إزاء نص يمثل البنية الصورية للخطاب (يار احمدى، ١).

يستعمل الخطاب حاليا بمعنيين مختلفين وفى الوقت نفسه مترابطين؛ المعنى الأول وهو مقتبس من الألسنية وتنبع من الإتجاه الأنجلو الأمريكية يحدد مفهوم الخطاب كوحدة لسانية كبيرة والمعنى الثانى يركز على الدراسات الإجتماعية وتنبع من الإتجاه الفرنسى (مكاريک، ٢٥٦).

يتضح مما سبق أن الخطاب هو نظام يحتوي على مجموعة من المنتوجات الفكرية التى تطرح بغية إيصالها إلى المتلقى عبر النصوص السمعية أو البصرية أو المكتوبة (ميرزائى، ٤٨). فكل كلام أو خطاب يمكن إعتباره تيار أو ظاهرة إجتماعية وله بنية إجتماعية وماهية إجتماعية وبعبارة أخرى الخطاب أرضية لها ركائز إجتماعية (مک دانل، ٥٥ و٥٦).

اللغة وعناصرها من العناصر الرئيسة في الخطاب، لكن الظروف الإجتماعية تلعب دوراً لا يستهان به فى تكوينها لأن مفهوم الخطاب يؤكد على العملية الإجتماعية التى تنتج المعنى، فالخطاب تجسيد للمعنى والروابط الإجتماعية وتجسيم للأفكار والصلات الإجتماعية (عضدانلو، ١٧). بعبارة أخرى لا تنبع المعاني من داخل اللغة بل من داخل الصلات

Archive of SID

www.SID.ir

الإجتماعية والسياسية. عندما تنتشر الكلمات والمفاهيم داخل الخطابات المختلفة تفيد معانيها (*المصدر نفسه*، ١٨). فبإمكاننا أن نقول الظروف الإجتماعية هي التي تحدد خصائص الخطاب (فيركلو، awu-dam.org).

إخوان الصفا

شهد القرن الرابع الهجري ازدهارا رائعا في النشاطات الفلسفية في ايران والعراق «حتى يخيل إلى لإنسان أنه لم يبق فى العراق وإيران مدينة إلا اهتمت بالفلسفة» (ضيف، ٢٨٣)، خاصة فى بغداد حيث كانت فيها منتديات يختلف إليها الفلاسفة والعلماء والنشاطات العلمية كانت فى ذروتها (*المصدر نفسه*، ٢٨٨-٢٨٥ وفريد حجاب، ٣٤). من مظاهر هذا النشاط العلمي والفكري والفلسفي ظهور جماعة سرية متفلسفة في البصرة عرفت بإخوان الصفا. اتخذوا البصرة مركزاً لنشاطهم العلمى والفكرى وكان لهم فرع فى بغداد. (أيوب، ١٥٣) ظهور هذه الجماعة تعتبر ظاهرة فريدة فى تاريخ الحضارة الإسلامية؛ لأنها من أهم وثائق التراث الإسلامي بما تمثل من التقاء تيارات متعددة وأفكار مختلفة من كتب سماوية وغير سماوية والشريعة العربية والفلسفة اليونانية (فريد حجاب، ٥).

اكتنفهم الغموض منذ نشأتهم وكتابة رسائلهم؛ حيث لا تعرف اسمائهم بالضبط ولا مذهبهم ولايزال الباحثون مختلفين في الإجابة عن هذين السؤالين: ما هي أسماء مؤلفي هذه الرسائل وما كانت غاياتهم من تأليفها؟ أول وثيقة تاريخية تحدثت عنهم هو كتاب أبي حيان التوحيدي، عرّفهم ابوحيان هكذا: «منهم أبو سليمان محمد بن معشر البيستيّ، ويعرف بالمقدسيّ، وأبو الحسن علي بن هارون الزّنجانيّ، وأبو أحمد المهرجانيّ والعوفيّ وغيرهم، فصحبهم وخدمهم، وكانت هذه العصابة قد تآلفت بالعشرة، وتصافت بالصّداقة، واجتمعت على القدس والطّهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهبا زعموا أنّهم قرّبوا به الطريق إلى الفوز برضوان اللّه والمصير إلى جنّته، وذلك أنهم قالوا: الشريعة قد دنّست بالجهالات، واختلطت بالضّلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، وذلك لأنّها حاوية للحكمة الاعتقاديّة، والمصلحة الاجتهادية» (أبوحيان التوحيدي، ١٦٣). ولكن هناک بعض الإشارات إلى أن المقدسي أُعتبر المؤلف الرئيس لهذه الرسائل، حيث يقول السجستاني: «أبوسليمان المقدسي له الرسائل الإحدى والخمسون المسماة برسائل إخوان الصفا وكلها مشحونة

Archive of SID

www.SID.ir

بالأخلاق وعلم الألحان (السجستانى، ٣٦١ و٣٦٢) كما يرى الشهرزوري أن ألفاظ الرسائل للمقدسي (شهرزورى، ٢٦٨).

لكن الباحثين يرفضون انتماء كتابة هذه الرسائل الضخمة إلى شخص واحد؛ لأنها تشمل حقول معرفية كثيرة من الرياضيات والطبيعيات إلى الإلهيات والعلوم الشرعية والفسلفة وتستبعد كتابة مثل هذه المجموعة الضخمة خلال مدة قصيرة على يد شخص واحد. إذن لابد أن تكون قد كتبت خلال بضع سنوات وعلى أيدى عدة أشخاص (خراسانى، ٢٤٦).

اكتنف مذهبهم الغموض أيضا واختلف الباحثون فى تحديد معتقداتهم كل الإختلاف. يجب أن ننتبه إلى أن القرن الرابع الهجرى كان عصر الصراعات العقائدية بين أصحاب الآراء والملل فأراد إخوان الصفا أن يذيبوا هذه الخلافات فى مذهب واحد وشامل مبني على أسس ومبادئ مستوحاة من كافة الأديان والمذاهب والنحل وكان اتجاههم الإنفتاح نحو جميع المذاهب والنحل حيث كانوا يوصون أصحابهم بعدم رفض المذاهب الأخرى، فكان مذهبهم كان مزيجا من المعتقدات الشيعية والثقافة اليونانية واتخذوا كثيراً من مبادئ الفسلفة الطبيعية متأثرين بالفيثاغورثية الحديثة ولجأوا إلى تأويل القرآن تأويلا مجازيا وكانوا مثاليين يطمحون نحو بناء عالم أفضل غير هذا العالم البشرى وكانوا يميلون نحو العرفان كل الميل حيث اعتبروا من أهم طبقات العرفاء فى التاريخ الإسلامي (انظر: خراسانى، ٢٥٣-٢٤٥ وفريد حجاب ٣٥ وأيوب، ١٥٣ و370&371 , Nicholson). ولكن رفض المتشددون هذه الآراء والمعتقدات رفضا عنيفا حيث اعتبروها ضالة ومنحرفة وقاموا بتحريق ما وجدوا من رسائلهم سنة ٥٤٥ (دورانت، ٣٢٦).

قصة تداعي الحيوان على الإنسان

قصة تداعي الحيوان على الإنسان في حضرة ملك الجن من أروع القصص في رسائل إخوان الصفا. بإمكاننا أن نعتبرها نقداً لاذعاً للمجتمع العباسي في إطار خرافة تتركز على سلسلة من المناظرات بين مندوبين من الحيوان والجن من جهة وممثلين من مختلف الشرائح للمجتمع الإنساني من جهة أخرى. بنيت القصة على التجاء الحيوانات إلى ملك الجن وشكواها من ظلم الإنسان وجوره.

Archive of SID

www.SID.ir

هذه القصة في الرسالة الثانية والعشرين من رسائل إخوان الصفا وهي الرسالة الثامنة في المجلد الثاني عنوانها: «الجسمانيات والطبيعيات في كيفية تكوين الحيوانات واصنافها» ويعلن مؤلفوها غرضهم من تأليفها هكذا: «نريد أن نذكر في هذه الرسالة أيضا طرفا من كيفية تكوين الحيوانات وبدء كونها ونشوئها ونمائها وكمية أجناسها فنون أنواعها وخواص طباعها واختلاف أخلاقها ونبين أيضا أن آخر مرتبة الحيوان متصل بأول مرتبة الإنسان وآخر مرتبة الإنسان متصل بأول مرتبة الملائكة... ليكون في ذلک بيان ودليل لمن كان له قلب صاف ونفس زكية وعقل راجح على كيفية ترتيب الموجودات ونظام الكائنات عن علة واحدة ومبدأ واحد ....» (اخوان الصفا، ١٧٨ و١٧٩).

ملخص القصة

كان ملک عادل من الجن اسمه « بيراست الحكيم » لقبه « شاه مردان » يعيش مع رعيته في جزيرة « صاغون » في البحر الأخضر فيما يلي خط الإستواء. وكانت الجن تعايش أصناف الحيوانات تعايشاً سلمياً بالهناء والرغد. ولكن تغيرت الظروف حيث طرحت عاصفة سفينة إلى هذه الجزيرة، فنزلت ركابها ووجدوها مكاناً خصباً مريحاً فاستطابوها وأستوطنوها وأخذوا يصيدون أصناف الحيوانات ويستعبدونها كما فعلوا في سائر أقطار الأرض. فخافت الحيوانات على حريتها وشكت إلى ملک الجن واستمدت منه العون، فأحضر الملک قضات الجن وفقهائهم وحكمائهم واستشارهم واستدعى مندوبي الإنس وسألهم عن دوافع أعمالهم. فادعى الإنس أنهم أشرف الخلائق وأصناف الحيوان عبيد لهم و للإنس الأمر والحكم وعلى الحيوان طاعة الإنس وخدمته.

أرسلت الحيوانات المتظلمة رسلاً إلى مختلف أجناس الحيوان وطلبت منها بعث ممثلين داهين مفوهين للمناظرة أمام ممثلي الإنس والدفاع عن حقوق الحيوانات. وهذا بداية سلسلة من المناظرات بين ممثلي الإنس والحيوان في حضرة ملک الجن وفقهائهم وحكمائهم وقضاتهم استغرقت أربعة أيام. طرحت خلال هذه المناظرات والمساجلات انتقادات لاذعة حول مساوئ المجتمع الإنساني على لسان بعض الحيوانات وحكماء الجن من جهة ومن جهة أخرى عرضت معلومات كثيرة حول طبائع الحيوانات وخصائصها البيولوجية وأشاروا خلالها إلى بعض

Archive of SID

www.SID.ir

قصص الأنبياء. في نهاية المطاف غلب ممثلو الإنس وفشل مندوبو الحيوان وأقرت بحق الإنس وفضله وسيادته.

تحليل خطاب إخوان الصفا في هذه القصة

١- النزعة العقلانية:

هذه النزعة من أهم ركائز القصة، وهناك نماذج كثيرة منها خلال القصة نشير إلى بعض منها؛ بُنيت القصة على الإتيان بالحجج والبراهين والإستدلال والإستنتاج؛ حيث لايقبل ملك الجن إدعاء دون بيّنة وحجة ولهذا بنيت القصة على سلسلة من المناظرات والمباحثات بين مندوبي الإنس المدعّين سيادة الإنس على سائر الكائنات ومندوبي الحيوان المنكرين هذه المزاعم. عندما يواجه ملك الجن دعاوي الإنس يؤكد على ضرورة إقامة البراهين والحجج الواضحة ويقول: «إن الدعاوي لا تصحّ عند الحكام إلا بالبيّنات ولاتُقبل إلا بالحجة الواضحة فيما قلتَ وادعيتَ» (المصدر نفسه، ٢٠٩).

فى موضع آخر عندما ادعى أحد ممثلي الإنس أن رجحان عقول الإنسان وخلقتهم وجودة حواسهم دليل على أن الإنس هم الأرباب والحيوانات عبيد لهم. يجيب ممثل البهائم: « وأما الذى ذكرته من رجحان العقول فلسنا نرى له أثراً أو علامة لأنه لو كان لكم عقول راجحة لما افتخرتم علينا بشئ هو من أفعالكم ولا اكتساب منكم بل هى مواهب من الله جلّ ذكره لتعرفوا مواقع النِعم وتشكروا له ولا تعصَوه وإنما العقلاء يفتخرون بأشياء هى أفعالهم من الصنائع المحكمة والآراء الصحيحة والعلوم الحقيقية والمذاهب المرضية والسنن العادلة والطرق المستقيمة ولسنا نراكم تفتخرون بشئ منها غير دعوى بلاحجة وخصومة بلابيّنة» (المصدر نفسه، ٢١٣ و٢١٤).

عندما وصل رسول الحيوانات إلى الأسد ملك السباع رشّح بعض السباع أنفسهم للحضور فى مجلس ملك الجن والدفاع عن حقوق الحيوانات، ثم يبين الأسد خصائص الرسول: «... ولمن رسول الملك يجب أن يكون رجلا عاقلا حكيما خبيرا فاضلا مُنصفا كريما لايميل ولايجنف في الأحكام»، ثم يوضح خصائص الرسول: «أولها يحتاج أن يكون رجلا عاقلا حسن الأخلاق بليغ الكلام فصيح اللسان... محترزا فيما يُجيب ... حسن العهد مراعياً للحقوق كَتوما للسِّر قليل الفضول في الكلام ... ولايكون شَرِهاً ولايكون حريصاً ... بل

Archive of SID

www.SID.ir

يكون ناصحاً لمرُسله ولإخوانه وأهل بلده وأبناء جنسه...» (المصدر نفسه، ٢٤٣ و٢٤٤) وفي نهاية هذه الوصايا يقول النمر: «لايصلح لهذا الشأن إلا الحكيم العادل والعالم الخبير كليلة أخو دمنة» (*المصدر نفسه*، ٢٤٣ و٢٤٤). نرى أن في كل هذه الأوصاف يعتبر العقل ركيزة أساسية في الحياة الإجتماعية والسياسية ويؤكد عليه كثيراً خاصة فيما يرتبط بالشؤون الحكومية وبإمكاننا أن نعتبر تركيز إخوان الصفا هذا على أهمية العقل تعريضاً بالسلطات العباسية.

٢- النزعة المثالية:

من الركائز الأساسية في خطاب إخوان الصفا في القصة هي النزعة المثالية، حيث نستطيع أن نتلمس ظواهرها خلال النص، وهذه النزعة تتركّز على مستويين: المستوى الأول في صعيد السلطة حيث نرى أنّ إخوان الصفا ينتهزون أية فرصة لطرح آرائهم حول الشروط اللازمة على الملوك والحكام؛ على سبيل المثال عندما توصف خصائص ملك الجن وهو أفضل ملك في القصة يقال هكذا: « كان بيراست الحكيم عادلاً كريماً منصفاً سَمحاً يقري الأضياف ويؤوي الغرباء ويرحم المبتلى ويمنع الظلم ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولايبتغي بذلك غير وجه الله تعالى ومرضاته» (*المصدر نفسه*، ٢٠٥).

وفي موضع آخر يصف النمر خصائص الملوك للأسد ملك السباع هكذا: « ... أما الملك فينبغي أن يكون رجلاً عاقلاً أديباً لبيباً سخياً شجاعاً عادلاً رحيماً، عالي الهمة،كثير التحنّن، شديد العزيمة، صارماً في الأمور، متأنّياً ذا رأي وبصيرة ومع هذه الخصال ينبغي أن يكون مشفقاً على رعيته، متحنّناً على جنوده وأعوانه، رحيماً بها كالأب المشفق على أولاده الصغار، شديد العناية بصلاح أمورهم... » (*المصدر نفسه*، ٢٤٠).

المستوى الثاني هو الصعيد الإجتماعي والذى يتبلور في النقد الإجتماعي اللاذع للمجتمع البشري الذي يشتمل الشرائح المختلفة في القرن الرابع الهجري حيث نرى أن الإنسان في القصة يقع في جانب الشر ومعظم الحيوانات تقع في جانب الخير، وإزاء كل خصائل الشر في الإنسان نواجه الخصال الخير في الحيوانات؛ حيث لانرى فيها شيئا من الشر تقريباً إلا في الحيوانات التي تألف الإنسان مثل الكلب والهر والفرس. فإمكاننا أن نقول أنّ الحيوان يمثل في القصة النزعة المثالية في الإبتعاد عن الشر والركون إلى الخير.

Archive of SID

www.SID.ir

٣- آراء إخوان الصفا حول الحُكم والحاكم :

من المضامين الرئيسة التي يهتم به إخوان الصفا كثيراً خلال القصة هي قضية الحُكم والحاكم والشروط اللازمة التي يجب على الحاكم الصالح أن يلتزم بها والنقد اللاذع للحكام في المجتمع العباسي آنذاك. عندما يتحدث النمر إلى الأسد ملك السباع يبين موقف الحاكم من الناس ووقف الناس من الحاكم هكذا: « سبيل الملك أن يدبّر الرأي ويشاور أهل البصيرة بالأمور ثم يأمر وينهى ويدبّر الأمور كما يجب وسبيل الرعية أن يسمعوا ويطيعوا لأن الملك من الرعية بمنزلة الرأس من الجسد والرعية والجنود بمنزلة الأعضاء من البدن. فمتى قام كل واحد منها بما يجب من الشرائط انتظمت الأمور واستقامت وكان فى ذلک صلاح الجميع وفلاح الكل» (*المصدر نفسه*، ٢٤٠).

ثم يشرح النمر للأسد الخصال والشرائط الواجبة على الملک والرعية قائلاً: «... أما الملک فينبغي أن يكون رجلاً عاقلاً أديباً لبيباً سخياً شجاعاً عادلاً رحيماً، عالي الهمة ،كثير التحنّن، شديد العزيمة، صارماً في الأمور، متأنّياً ذا رأي وبصيرة ومع هذه الخصال ينبغي أن يكون مشفقا على رعيته، متحنّناً على جنوده وأعوانه، رحيماً بها كالأب المشفق على أولاده الصغار، شديد العناية بصلاح أمورهم. وأما الذي يجب على الرعية والجنود والأعوان فالسمع والطاعة للملک والمحبة له والنصيحة لأعوانه وأن يعرّفه كل واحد منهم ما عنده من المعرفة وما يحسن من الصناعة وما يصلح له من الأعمال ويعرّف الملک أخلاقه وسجاياه ليكون الملک على علم منه و لم ينزل كل واحد منهم منزلته ويستخدمه فيما يحسن ويستعين به فيما يصلح له» (*المصدر نفسه*، ٢٤٠ و٢٤١).

عندما حضر زعماء الطوائف من الإنس وممثلي الحيوانات مجلس ملک الجن، سأل ملک الجن مندوب السباع وهو كليلة أن يصف له الأسد، ومن أوصافه كملک السباع: « ... وهو شديد العزيمة، حازم الرأي، إذا همّ بأمر قام إليه نفسه لايستعين بأحد من جنوده وأعوانه سخي النفس، ... عفيف النفس عن الأمور الدنيّة لايتعرض للنساء ولا للصبيان ولا للنيام ... قال: كيف سيرته فى رعيته قال: أحسنها وأعدلها » (المصدر نفسه ٢٩٢). وهكذا نرى فى المحادثة بين الببغاء مندوبي الجوارح وملک الجن عندما يتحدث عن خصائص ملک الجوارع العنقاء يصف سيرته فى رعيته بالعدل والإحسان (*المصدر نفسه*، ٢٩٣ و٢٩٤).

Archive of SID

www.SID.ir

وهذه الخصائص متوفرة في أكثر زعماء الحيوانات في القصة؛ حيث أن اليعسوب أمير الحشرات حضر مجلس ملك الجن بنفسه و لم يرسل مندوباً إشفاقاً على رعيته وتجنباً من أن ينال أحداً منهم سوء أو أذى (*المصدر نفسه*، ٣٠١).

في موضع آخر، يسأل اليعسوب ملك الجن عن كيفية طاعة الجن لرؤسائها وملوكها يصف الملك أنها أحسن طاعة وأطوع انقياد لأمرها ونهيها ويضيف قائلاً: «...فاعلم أن الجن أخيار وأشرار... أما حسن طاعة الأخيار منها لرؤسائها وملوكها فوق الوصف مما لايعرفه البشر من بني آدم لأن طاعتها لملوكها كطاعة الكواكب في الفلك للنيّر الأعظم الذي هو الشمس وذلك أن الشمس في الفلك كالملك وسائر الكواكب لها كالجنود والأعوان والرعية ... تسير بسيرها في استقامتها ورجوعها ووقوفها ... ولا تتعدى حدودها وجريان عاداتها في طلوعها وغروبها وتشريقها وتغريبها وجميع أحوالها ومتصرفاتها لايُرى منها معصية ولا خلافه» (*المصدر نفسه*، ٣٠٦).

ثم يسأل اليعسوب ملك الجن عن سبب هذه الطاعة والإنقياد فيجيب أن سببه هو طاعة الملائكة وانقيادهم لرب العالمين وهم جنوده وطاعتهم له كطاعة الحواس الخمس للنفس الناطقة ثم يشرح أن الحواس الخمس في إدراكها ممثلة للنفس الناطقة ولا تحتاج إلى أمر ونهي ووعد أو وعيد وهكذا طاعة الملائكة لرب العالمين الذين لايعصون الله (*المصدر نفسه*، ٣٠٦ و٣٠٧). ثم يفصل في شرح كيفية طاعة الجن لملوكها وأمرائها ثم يعيب الإنسان بعصيانه وخداعه: «فأما طباع الإنس وجَبلتهم فبالضد مما ذكرت وذلك أن طاعتهم لرؤسائهم وملوكهم أكثرها خداع ومكر ونفاق وغرور وطلب للعوض والأرزاق والمكافآت... فإن لم يروا ما يطلبون أظهروا المعصية والخلاف وخلعوا الطاعة والخروج من الجماعة والعداوة والحرب ...فهكذا حكمهم مع أنبيائهم ورسل ربهم تارة ينكرون دعوتهم بالجحود... ويطلبون منهم المعجزات بالعناد وتارة الإجابة بالنفاق والشك والإرتياب والمكر والدغل والغش... كل ذلك لغِلَظ طباعهم ورداءة جبلتهم ... وتراكم جهالاتهم وعمى قلوبهم، ثم لايرضون حتى يزعمون أنهم أرباب وغيرهم عبيد لهم بلاحجة ولابرهان» (*المصدر نفسه*، ٣٠٨).

نرى بوضوح آراء إخوان الصفا في كيفية نظام الحكم في المجتمع: أن يكون الحاكم جامعاً لجميع خصال الخير من العدل والإحسان والحزم والتقوى والزهد و... وأن يكون الناس كلهم مطيعين ملبّين دعوة هذا الحاكم الصالح للسير في سبيل الله ومرضاته ونعلم أن هذه الخصائص

Archive of SID

www.SID.ir

المثالية تختلف كل الإختلاف عن واقعيات المجتمع الإسلامي في العصر العباسي وما نعرف عن سلوک الخلفاء العباسيين خاصة في عصر انقسام الإمبراطورية العباسية إلى الدول والإمـــارات والحروب الأهلية بينها في القرن الرابع الهجري.

فى موضع آخر يفتخر الرجل الفارسي بالشرائح الإجتماعية والنظم الإداريـــة في المجتمـــع البشري من الملوک والأمراء والوزراء والعلماء والكتّاب وأصـــحاب الحـــرف والـــصناعات والزرّاع وغيرهم، فيرد عليه الببغاء وهو مندوب الجوارح ردّاً عنيفاً حيث يؤدي بمثلي الإنس بالصمت والخجل وخلال رده يتعرض بالحكام والملوک من الإنس ويقارنهم برؤساء الحيوانات والحشرات: «... لجماعة النحل ولجماعة النمل وجماعة الطيور ولجماعة السباع رؤساء وأعوانا وجنوداً ورعية وأن رؤسائها وملوكها أحسن سياسة وأشد رعاية من ملوک بني آدم بها وأشد تحنّنا عليها ورأفة بها وشفقة عليها بيان ذلک أن أكثر ملوک الإنس ورؤسائها لا ينظـــرون في أمر الرعية وجنودهم وأعوانهم إلا لجرّ منفعة منها أو دفع مضرّة عنها...و ليس هذا من فعـــل الملوک والفضلاء... وخصال الرياسة أن يكون الملک والرئيس رحيما رؤوفا برعيته مـــشفقا متحنّنا على جنوده وأعوانه اقتداء بسنة الله تعالى الجواد الكريم لخلقه وعباده كائنا من كان ... وملوک أجناس الحيوانات ورؤسائهم هم بسنة الله تعالى أحسن اقتداء من ملـــوک الإنـــس ورؤسائهم (*المصدر نفسه*، ٣٣٩ و٣٤٠).

فى هذه الأوصاف تعريض لاذع بمساوئ الحكام العباسيين وعمالهم؛ حيث يصرح إخوان الصفا على أنهم لايهتمون برعاياهم فحسب، بل لا يبالون بسنة الله تعـــالى وتعـــاليم أنبائـــه ويعتبرون زعماء الحيوانات أحسن سلوكاً من زعماء الإنس.

الدين والمُلک أخوان توأمان

يدعو إخوان الصفا إلى هذه الفكرة أن الملک والدين لا ينفصلان بـــل يجـــب أن يتـــضامنا ويتماسكا كأخوين توأمين. تطرح هذه الفكرة عندما يجري حوار بين الممثل الفارسي وملک الجن حول سبب الإختلاف في الآراء والمذاهب والأديان بين الناس؛ يؤكد الممثل الفارسي أن الديانات قصدها واحد وهو التوجه إلى الله ولكن هذه الخلافات ليس من جهة الدين ولكـــن من جهة المُلک لأن الدين والمُلک أخوان توأمان لا يفترقان ولا قِوام لأحدهما إلا بأخيه «غير أن الدين هو الأخ المقدّم والمُلک هو الأخ المؤخّر... فلا بد للمُلک من دين يدين به النـــاس

Archive of SID

www.SID.ir

ولابد من مُلك من ملِك يأمر الناس بإقامة سننه طوعاً أو كرهاً، فلهذه يقتل أهل الـــديانات بعضهم بعضا طلبا للمُلك والرياسة » (*المصدر نفسه*، ٣٦٨).

٤- النزعة الصوفية:

ذم الدنيا والتزهيد فيها والتنبيه على أهمية الآخرة ومضار الغفلة عنها من مضامين القصة ومحاور خطاب إخوان الصفا. ينتهزون الفرصة للتعبير عن آرائهم وتوجيه النصح نحو القارئ في بلاط ملك الطيور وهو شاه مرغ عندما يطلب الملك من وزيره طاووس أن يشرح له خـــصائص الطيور وأذكارهم في نغماتهم، مثلا: « وأما الديك المؤذن ... العارف بأوقات الصلاة المذكّر بالأسحار المنبّه للحيران ... وهو القائل في أذانه في وقت السحر: اذكروا الله ما أطول ما أنتم نائمون والموت والبِلى لاتذكرون ومن النار لاتخافون وإلى الجنة لاتشتاقون... وأما الـــدُرّاج المغني ... وهو القائل في مراثيه ومواعظه شعراً:

يا مُفنيا للعُمرِ في البُنيـــــــانِ وغارسَ الأشـــــــجارِ في البُستانِ
وبانيَ القُصورِ في الميـــــــدانِ وقاعِدا في الـــــــصَدرِ في الإيوانِ
وغـــافِلا عـــن نُوَبِ الزَمـــــانِ احـــذَر ولا تَغتـــَرّ بالـــرحمـــــنِ
واذكُر غـــَد التَرحالِ للـــجَبّـــانِ مُجـــاوِرِ الحَيّـــــاتِ والـــدِيـــدانِ
مِن بعد عَيشٍ طيّبِ المَـــانِ

...و أما البلبل الحاكي... يجاور بني آدم في بساتينهم ويخالطهم في مساكنهم... ويعظهم في تذكاره لهم فهو القائل لهم عند لهوهم وغفلاتهم: سبحان الله كم تلعبون ســبحان الله ،كـــم تحكون، سبحان الله ألاّ تسبّحون، سبحان الله أليس للموت تولدون، أليس للخراب تبنـــون، أليس للفناء تجمعون، كم تلعبون وكم تولعون أليس غدا تموتون وفي التراب تُـــدفَنون ... » (*المصدر نفسه*، ٢٥٢-٢٥٠)

وفي بلاط ملك الجوارح وهو العنقاء نواجه البوم يمثل زاهداً ورعاً عارفاً بتاريخ الإنسان « ينظر إلى آثارهم القديمة ويعتبر بالقرون الماضية ... يصوم النهار ويحيي الليل وربما يعظ بني آدم يذكّرهم وينوح على ملوكهم الماضية ... ويقول:

Archive of SID

www.SID.ir

سألتُ الدارَ تُخبِرُني عَن الأحبابِ ما فَعَلُوا
فقالَت لي: أقامَ القومُ أيّاماً وقد رَحَلُوا
فَقُلتُ:أينَ أطلبُهم وقَد لَقُوا واللهِ ما عَمِلُوا

(*المصدر نفسه* ٢٥٨ و٢٥٩)

فيحاول إخوان الصفا أن يذم طموحات الإنسان المادية وغفلته عن زوال الدنيا وفنائه وأن يذكّره بالموت وعالم الخلود والبقاء ويحرضه على ترک أمانيه الطويلة التي تنسي الإنسان ذكر الخالق وطاعته.

٥- النزعة العلمية في خدمة الدين:

بني خطاب إخوان الصفا في هذه القصة على دعامتين: النقد الإجتماعي اللاذع وعرض معلومات علمية حول الحيوانات لإثبات قدرة الله وحكمته. هناک نماذج كثيرة خلال القصة على سبيل المثال عندما يفتخر الرومي بعلوم الإنسان ومعارفهم وصناعاتهم يجيب اليعسوب قائلا: « يزعم هذا الإنسي بأن لهم علوماً ومعارف وفكراً ورويّة وتدبيراً وسياسة تدل على أنهم أرباب لنا ونحن عبيدهم فلو أنهم فكروا في أمرنا واعتدّوا أيضا أحوالنا لبان لهم من أمرنا وعرفوا من تصاريف أحوالنا وتعاوننا في إصلاح شأننا أن لنا أيضا علماً وفهماً ومعرفة وتمييزاً وفكراً وروية وسياسة وتدبيراً أدقّ وألطف وأحكم وأتقن مما لهم فمن ذلک اجتماع جماعة النحل في قُراها وتمليكها عليها رئيساً واحداً واتخاذ ذلک الرئيس أعوانا وجنوداً ورعية وكيفية مراعاتها وسياساتها وكيفية اتخاذها المنازل والبيوت المسدّسات المتجاورات المكتفات من غير بركار ومعرفة هندسة كأنها أبابيب مجوّفة مسدّسة... » (*المصدر نفسه*، ٣١٠ و٣١١). ثم يطنب في شرح خصائص وعجائب من حياة بعض الحشرات كالنحل والنمل والجراد ودود القز منها: «وأيضا أيها الملک لو علم الإنسي من حال النمل وكيف تتخذ القرية تحت الأرض منازل وبيوتا وأزقة ودهاليز وغرفا وطبقات منعطفات وكيف تملأ بعضها حبوباً وذخائر وقوتاً للشتاء وكيف تجعل بعض بيوتها منخفضاً مصوناً كي لاتجري إليها المياه وبعضها مرتفعا تخبئ الحَب والقوت في بيوت منعطفات إلى فوق حذراً عليها من المطر ...» (المصدر نفسه، ٣١١).

Archive of SID

www.SID.ir

فى موضع آخر عندما يفتخر ممثل الإنس بوجود الصناع وأصحاب الحرف في المجتمع البشري يرد عليه الببّغاء ويشرح جوانب من حياة النحل والعنكبوت ودودة القز والخطّاف والأرضة والنعامة، على سبيل المثال يتحدث عن عجائب صناعة النحل: « ثم قال الببغاء: أيها الإنسي أما الذي ذكرت بأن منكم صُناعا وأصحاب حِرَف فليس ذلک بفضيلة لكم دون غيركم ولكن قد شارككم فيها بعض أصناف الطيور والهوامّ وغير ذلک من الحيوانات وبيان ذلک أن النحل هي من الحشرات وهي في اتخاذها البيوت وبناء منازل الأولاد أحذق وأعلم وأحكم من صُنّاعكم وأجود وأحسن من بناء المهندسين والبنّائين منكم وذلک أنها تبني منازلها طبقات مستديرات كالكِراس بعضها فوق بعض من غير خشب ولا لَبِن ولا آجرّ ولا جِصّ كأنها غرف من فوقها غرف وتجعل تقدير بيوتها مسدسّات متساويات الأضلاع والزوايا... ولا تحتاج في عمل ذلک إلى قراءة كتب الهندسة ولا إلى البركار والمسطرة... » (*المصدر نفسه*، ٣٤٥).

ثم يشير إلى تسبيح الحيوانات التي لا يدركها الإنسان: « وأما الذي ذكرت بأن منكم الشعراء والخطباء والمتكلمين والمذكّرين وما شاكلهم فلو أنكم فهمتم منطق الطير وتسبيح الحشرات والهوام وتمليلات البهائم وتذكار الصرصر ودعاء الضفدع ومواعظ البلبل وخطب القنابير وتسبيح وتكبير الكراكي وأذان الديک ... وغيرها من الحيوانات ذوات الأصوات والطنين والزمير لعلمتم معشر الإنس وتبين لكم أن في هذه الطوائف خطباء وفصحاء ومتكلمين وواعظين ... مثل ما في بني آدم (*المصدر نفسه*، ٣٤٩).

نرى أن الإهتمام بالعلم وهنا العلوم الطبيعية في رأى إخوان الصفا ليس هدفاً بنفسه بل هو طريق الوصول إلى معرفة الخالق وتبيين حكمته في خلقه. بإمكاننا أن نقول في خطاب إخوان الصفا العلم في خدمة الدين وأهدافها التربوية .

٦- النقد اللاذع للمجتمع في العصر العباسي

النقد الإجتماعي محور رئيسي في خطاب إخوان الصفا في القصة. يطرح هذا النقد من بداية القصة إلى نهايتها على لسان مندوبي الحيوانات وحكماء الجن مراراً. ويتمحور هذا النقد حول ثلاثة محاور:

أولا: النقد الإجتماعي العام يشمل عادات الإنسان وسلوكه بصفة عامة

Archive of SID

www.SID.ir

ثانيا: نقد الشرائح الإجتماعية المختلفة من أصحاب الديانات والمذاهب إلى أصحاب الحرف والصناعات

ثالثا: النقد السياسي للأمراء والخلفاء العباسيين

وهنا نأتي ببعض نماذج منها:

٦-١ النقد الإجتماعي العام:

مما افتخر به مندوبو الإنس ما قال الأعرابي وشرح لذائذ الحياة في المجتمع البشري من أنواع المأكولات والأطعمة والأشربة واستنبط أن هذه الملذات دليل على سيادة الإنسان ولكن فنّد الهزارستان هذه الدعاوي قائلاً: «واعلم أيها الملک الكريم أن هذا الإنسي افتخر بطيب مأكولاتهم ولذيذ مشروباتهم ولا يدري أن ذلک كله عقوبات لهم وأسباب الشقاوة وعذاب أليم إذ في حرامها عذاب وفي حلالها حساب وهم فيما بينهما من الخوف والرجاء» (*المصدر نفسه*، ٣١٧-٣١٥).

ثم يشرح ما يعاني الإنسان في سبيل الحصول على أنواع الطعام والملذات ويعتبر هذه المعانات نتيجة طمع الإنسان وحرصه ويؤكد على أن الحيوانات بعيدة عن مثل هذه الصعوبات؛ لأنها تحصل على طعامها من الطبيعة وتقنع بما رزقها الله وإزاء كل لذة تصيب الإنسان أنواع مختلفة من البلايا والأمراض: «وأيضا فأن لكم بكل لذة ذكرتم من فنون مأكولاتكم وألوان مشروباتكم فنوناً من العقوبات وألواناً من العذاب مما نحن بمعزل عنه من الأمراض المختلفة والأعلال المزمنة والأسقام المهلكة ... كل ذلک أصابكم لما عصيتم ربكم وتركتم طاعته ونسيتم وصيته ... فمن أين زعمتم أنكم أرباب ونحن عبيد لولا الوقاحة والمكابرة وقلة الحياء وأنتم في الحياة صحيحي البدن ففي تعب وكد لتحصيل الإلتماسات والمشتهيات وما دُمتم مرضى ففي عقوبة وحسرة وبعد الموت في العقاب والعذاب والخطاب ووقوف الحساب ونحن فارغون من هذه الجملة فمن الموالي ومن العبيد منا ومنكم » (*المصدر نفسه*، ٣١٩و ٣٢٠).

وفي موضع آخر يفتخر رجل عبراني من العراق بأن الله سبحانه اختص بني آدم بإرسال الرسل والكتب السماوية والتعاليم الدينية وأنواع المناسک والعبادات والشعائر دون الحيوانات، يرد عليه ممثل الطيور قائلاً: «لو تذكرت أيها الإنسي ونظرت واعتبرت لعلمت وتبيّن لک أن

Archive of SID

www.SID.ir

هذه كلها عليكم لا لكم ... لأنها كلها عذاب وعقوبات وغفران للذنوب ومحو للسيئات ونهى عن الفحشاء والمنكر... واعلم أيها الإنسي أن الله سبحانه وتعالى لم يبعث رسله ولا أنبياءه إلا إلى الأمم الكافرة الجاهلة وعامة المشركين معه غيره والمنكرين بربوبيته... إذ قولكم إن الله ثالث ثلاثة وقولكم عُزير ابن الله وقولكم المسيح ابن الله... فمن هذه الخرافات والمجازات التي تجئ منكم وأنتم المغيّرون أحكامه والعاصون أوامره والهاربون من طاعته والجاهلون إحسانه والغافلون عن ذكره... فلهذا بعث الله الأنبياء والرسل إليكم ليعّرفوكم طريق الهدى وسبيل الرشاد...و نحن براء من هولاء لأننا عارفون بربنا مسلمون مؤمنون به موحدون به غير شاكّين ولا ممترين ولا ضالّين» (*المصدر نفسه*، ٣٢٤ و٣٢٥).

ثم يشرح فوائد كل نوع من العبادات والمناسک والفرائض لتطهير الإنسان وتزكيته مثلا في الصلاة: «ثم اعلم أيها الإنسي أن الأنبياء هم أطباء النفوس ومنجمّوها ولا يحتاج إلى الطبيب إلا المرضى... وأما الصوم والصلاة فإنما هي فُرضت عليكم ليكفّر عنكم سيئاتكم... فالأنبياء (ع) يعالجونكم بهذه المداواة إذ أنتم مرضى من المعاصي ونفوسكم قد امتلأت من مأكولات الذنب... وأما الصدقات والزكوات فإنما فرضت عليكم من أجل أنكم تجمعون من فضول الأموال من الحلال والحرام والغصب والسرقة ...و البخل والشح والإحتكار ومنع الحقوق... وأما الذي ذكرت بأن لكم في الكتب آيات محكمات بينات للحلال والحرام والحدود والأحكام؛ فكل ذلک تعليم لكم وتأديب لجهلكم وعماكم وقلة معرفتكم بالمنافع والمضار وأن الإنسان كان ظلوماً جهولاً تحتاجون إلى المعلمين والأستاذين والمذكّرين والواعظين لكثرة غفلاتكم وسهوكم ونسيانكم... وأعلم أن هذه الأحكامات والموضوعات قيود وأغلال وسلاسل عليكم إذ الحكمة الإلهية اقتضت هذه الأسرار الواجبة وجعلت الموضوعات الشرعية والحكمية أستاذاً ومؤدباً لكم ونحن بمعزل عن جميع ذلک إذ قد ألهمنا الله تعالى إلى جميع ما نحتاج إليه من أول الأمر إلهاماً ووحياً بلا واسطة من الرسل ولا نداء من وراء حجاب كما أوحى إلى النحل بقوله تعالى: وأوحى ربک إلى النحل أن إتخذي من الجبال بيوتا...» (المصدر نفسه، ٣٢٧-٣٢٥).

والنقد اللاذع هذا لسلوک الإنسان لا ينحصر بالجانب العقائدي للمجتمع البشري فحسب؛ بل يشمل جوانب أخرى كأنواع الصراعات وكثرة الحروب والقتال بين الشعوب؛ عندما يتّهم الرجل العراقي السباع بأنهم أقسى قلوبا وأقل نفعا وأكثر ضررا يرد عليه كليلة ممثل

Archive of SID

www.SID.ir

السباع أن السباع علمت قلة رحمها وقساوة قلوبها من الإنسان وينقد سلوک الإنسان فـي إثارة الحروب والقتال بينهم والوسائط والطرق التي يستخدمونها لقتل بعضهم الـبعض مـثلا يقول: «... وأما الذي ذكرت من غارات السباع على الحيوانات وقبضها عليها وقتلها فـإن ذلک كله إنما فعلته السباع بعدما رأت أن بني آدم يفعلون بعضهم ببعض منذ عهـد قابيـل وهابيل وإلى يومنا هذا نرى كل يوم من القتلى والجرحى والصرعى في الحروب والقتال مثل ما شوهد في أيام رستم واسفنديار وأيام جمشيد وتُبّع وأيام الضحّاک وأفريدون ... وأيام عثمان ويزدجرد وأيام بني العباس وبني مروان وهلم جرّاً إلى يومنا هذا... » (المصدر نفسه، ٣٣٥-٣٣٣).

٦-٢ النقد الإجتماعي لبعض الشرائح الإجتماعية

لا ينحصر النقد بالملوک والشرائح المسيطرة على المجتمع العباسي، بل يحاول إخوان الصفا أن ينقدوا سلوک مختلف الشرائح مثل المنجمين؛ فيشنّون هجوماً عنيفاً عليهم ويتّهموهم بالمكر والخداع على لسان الببغاء: « فأما الذي ذكرت من أمر المنجمين والراقين منكم فـاعلموا أن لهم تمويهات وتوهيمات وتلبيسات ورزقاً رقيقاً ينفق على الجهلاء من العوامّ والخواصّ والنساء والصبيان والحمقى... وذلک أن أحدهم يخبر بالكائنات قبل كونها ويرجم بالغيب ويُرجف به من غير معرفة صحيحة ودلائل عقلية واضحة وبراهين مثبتة ... واعلم أيها الإنسي أنه لا يغتر بقول المنجّم إلا الطغاة والبغاة من الملوک والجبابرة منكم والفراعنة والنمـاردة والمغـرورون بعاجل شهواتها والمنكرون أمر الآخرة ودار المعاد الجاهلون بالعلم السابق والقَدر المحتـوم...و يتوهمون أن أمور الدنيا تدبّرها الكواكب السبعة والبروج الإثنا عشر ولا يعرفون المدبّر الـذي فوق الكل الذي هو رب الأرباب... (المصدر نفسه، ٣٤٩ و٣٥٠).

وينقدون المتفلسفين والمنطقيين والجدليين أيضا على لسان الببغاء ويعتبرونهم من عوامل ضلالة الناس: « لأنهم هم الذين يُضلّون بني آدم عن المنهاج المستقيم وصواب الطريق والدين وأحكام الشرائع بكثرة اختلافهم وفنون آرائهم ومذاهبهم ومقالاتهم وذلک أن منهم من يقول بقِـدَم العالم ومنهم من يقول بقِدَم الهُيُولى ومنهم من يقول بقِدَم الصُورة... و منهم من قال بلا نهاية ومنهم من قال بالتناهي ومنهم من قال بالمعاد ومنهم من قال بالإنكار ومنهم من أقرّ بالرُسُـل والوحي ومنهم من أنكر ومنهم من قال بالعقل والبرهان ومنهم من قال بالتقليد من الأقاويـل

Archive of SID

www.SID.ir

المختلفة والآراء المتناقضة التي بنو آدم بها مبتلون وفيها متحيرون متبلبلون شاكون وفيها مختلفون ونحن كلنا مذهبنا واحد وطريقتنا واحدة وربنا واحد ولانشرک به شيئاً ... راضون بما قسمه الله تعالى إنا خاضعون تحت أحكامه، لا نقول: لم وكيف ولماذا فعل ودبّر كما يقول المعترضون على ربهم في أحكامه وتدبيره وصُنعه» (المصدر نفسه ٣٥٥ و٣٥٦).

النقد اللاذع هذا، يشمل كل الشرائح الإجتماعية فى العصر العباسي من التجار والدهاقين والكتاب وأصحاب الدواوين والفقهاء والعلماء والقراء والأمراء والخلفاء العباسيين مثلاً يقول البيغاء ناقداً: «... وأما تجاركم فيجمعون من حرام وحلال ويبنون الدكاكين والخانات ويملؤونها من الأمتعة ويحتكرونها ويضنّون بها على أنفسهم وجيرانهم وأحبابهم ويمنعون الفقراء والمساكين حقوقهم... وأما فقهاؤكم وعلماؤكم فهم الذين يتفقهون في الدين طلباً للدنيا وابتغاء للرياسة والولاية والقضاء والفتاوى بآرائهم وقياساتهم فيحللون تارة ويحرمّون تارة بتأويلاتهم، فيتبعون ما تشابه ويتركون حقيقة ما أنزل الله من الآيات المحكمات فنبذوه وراء ظهورهم كأنهم لايعلمون... وأما خلفاؤكم الذين تزعمون أنهم ورثة الأنبياء فكفى وصفهم ما قال الله تعالى وقال رسول الله (ص): ما من نبوة إلا ونسختها الجَبَروتية ويسمون باسم الخلافة ويسيرون بسيرة الجبابرة وينهَون عن منكرات الأمور ويرتكبون هم منها كل محظور ويقتلون أولياء الله وأولاد الأنبياء (ع) ويسبّونهم ويغصبونهم على حقوقهم... واستطالوا على الناس افتخاراً ونسوا أمر المعاد وباعوا الدين بالدنيا والآخرة بالأولى، فويل لهم مما كسبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون» (المصدر نفسه، ٣٦١-٣٥٨).

٦-٣ نقد لأرباب المذاهب والنحل:

فى موضع آخر يوجه إخوان الصفا نقدهم نحو أرباب المذاهب والنحل على لسان الهزاردستان الذي ينقد كثرة اختلاف مذاهب الناس وتضارب آرائهم حيث يقتلون بعضهم بعضا وتشن بينهم الصراعات والحروب ويؤكد على أن الحيوانات براء من هذه الصراعات والخلافات حيث يقول الهزار دستان: « ونحن من هذه كلها برآء مذهبنا واحد واعتقادنا واحد وكلنا موحّدون مؤمنون مسلمون غير مشركين ولا منافقين... نعرف ربنا وخالقنا ورازقنا...فنسبّحه ونهلله ونقدسه بكرة وعشيّا ولكن هولاء الأناس لا يفقهون تسبيحهم » (المصدر نفسه، ٣٦٧).

Archive of SID

www.SID.ir

نتلمس من خلال هذه السطور مدى جرأة إخوان الصفا فى نقد الشرائح الإجتماعية والثقافية فى مجتمعهم وتبيين مساوئهم من عامة الناس وأصحاب الحرف والصناعات إلى أصحاب الثقافة الرسمية خاصة الفقهاء وكبار أصحاب السلطة السياسية خاصة الخلفاء .

٧- خلود الإنسان، فناء الحيوان

منذ بداية تداعي الحيوان على الإنسان ومنذ أول مناظرة بين مندوبي الإنس ومندوبي الحيوانات، شن الحيوانات نقداً عنيفاً على الإنسان وسلوكه ومجتمعه حيث لم يكن عند ممثلي الإنس رد على هذا النقد وباء الإنسان بالفشل حتى آخر مناظرة بين الخطيب الحجازي والهزار دستان: عندما يقول الخطيب الحجازي أن الإنسان لا يفنى بالموت وهو خالد في عالم آخر ولا يفنى ولكن الحيوان ليس هكذا: « قال الحجازي: وكيف تساوت الأقدار بيننا وبينكم فإنا على أي حالة كانت، باقون أبد الآبدين ودهر الداهرين، إن كنا مطيعين فمع الأنبياء والأولياء والأئمة والأوصياء... ولو كنا مردودين إذن نتخلص بشفاعة نبينا محمد (ص) ونكون باقين في الجنة مع الحُور والغلمان والرَوح والريحان... وأنتم يا معشر الحيوانات بمعزل عن جميع ذلک لأنكم بعد المفارقة تفسدون وتبلون وتفنون ولاتبقون فهذا دليل على أننا أرباب وأنتم عبيد وخَوَل لنا» عندما تصل المناظرة إلى هذه المرحلة تقبل الحيوانات هذه الحجج والبراهين وتقر بسيادة الإنسان: « فقالت حينئذ زعماء الحيوانات وحكماء الجن بأجمعهم: الآن جئتم بالحق ونطقتم بالصواب وقلتم الصدق، لأن بأمثال ما ذكرتم يفتخر به المفتخرون ومثل أعمالهم فليرغب الراغبون ... » (المصدر نفسه، ٣٧٥ و٣٧٦).

في ختام هذه القصة ملاحظتان هامتان تستلفت الإنتباه: الأولى التركيز على قضية خلود الإنسان بعد الموت التي تعتبر فضيلة وميزة رئيسة للإنسان ودليل قاطع على سيادته على سائر الكائنات وهذا الدليل يطرح على لسان الرجل الحجازي الذي يعرّف تحت عنوان « الخطيب الحجازي المكي المدني » يمكن تفسيره بأن هذا الشخص في القصة، يمثل التيار الإسلامى لأنه مندوب من الحجاز .

والثانية: عندما تطلب الحيوانات والجن من الإنس أن يشرحوا أوصاف أهل الجنة وأولياء الله قام الممثل الفارسي ليشرح أوصافهم ولكن ما يستلفت النظر أوصاف هذا الممثل كما يعرّفه إخوان الصفا وهي أوصاف جمعت كل الخصائص الحميدة في رأيهم: « فقام عند ذلک

Archive of SID

www.SID.ir

العالم الخبير، الفاضل الذكي، المُستبصِر الفارسي النسبة، العربي الدين، الحنفي المذهب، العراقي الآداب، العبراني المخبر، المسيحي المنهج، الشامي النُسک، اليوناني العلوم، الهندي البصيرة، الصوفي السيرة، المكي الأخلاق، الربّاني الرأي، الإلهي المعارف، الصمداني» (المصدر نفسه، ٣٧٦).

تتضح من هذه الأوصاف، وجهة نظر إخوان الصفا حول المذهب المرغوب فيه لديهم: مذهب جامع لكل الآراء والمعتقدات التي يعتبرها إخوان الصفا حقاً وصواباً. ومن اللافت للنظر، تأثير الثقافات المتنوعة في آراء الإخوان كالثقافة الإيرانية والهندية واليونانية وانفتاحهم على المذاهب الأخرى وابتعادهم عن النزعات المتشددة والعصبية.

النتائج

تبين هذه الدراسة أن خطاب إخوان الصفا في هذه القصة خطاب نقدي يشمل جميع شرائح المجتمع العباسي في القرن الرابع ويرتكز على ثماني ركائز:

١. النزعة العقلانية: التأكيد على ضرورة الإرتكاز على العقل في السلوک الإجتماعي والسياسي خاصة عند الملوک والحكام وعند تضارب الآراء والمعتقدات .
٢. النزعة المثالية: تتجلى في الشروط اللازمة على الحاكم من جهة وعلى الناس من جهة أخرى. فعلى الحاكم أن يكون جامعاً لخصال الخير من الزهد في الدنيا والتقوى ورعاية الشعائر الدينية والصدق والحنان والشجاعة والحزم والتدبر في أمور الحكومة و... وعلى الناس أن يطيعوا الحكام الصالح إطاعة واعية وصادقة ليساعدوا المجتمع المثالي في سيره إلى الله.
٣. النزعة الصوفية: تتجلى في ذم الدنيا والدعوة إلى ترک لذاتها ومقتها والإنتباه إلى الدار الآخرة .
٤. النزعة العلمية: تتجلى في إهتمام إخوان الصفا بعرض معلومات علمية حول الحيوانات وحياتها مستهدفا إلى تبيين قدرة الله تعالى وحكمته في خلق الكون والكائنات الحية، بعبارة أخرى جعل إخوان الصفا العلم في خدمة الدين ومعرفة الخالق وحكمته.

Archive of SID

www.SID.ir

٥. القول بتلاحم الحكم والدين: يؤكد إخوان الصفا أن قوام الدين رهين الحكم، كما أن قوام الحكم رهين الدين فيجب أن يكون تلاحم وترابط بين الحكم والدين.

٦. النقد الإجتماعي العام لسلوك البشر برمته: وهو نقد لمعظم نماذج السوك البشرية في الصعيد الديني والأخلاقي والصعيد الإجتماعي؛ من الغفلة عن ذكر الله وترك التعاليم الدينية ونبذها وارتكاب الذنوب والمعاصي إلى الطموح نحو الدنيا وانتهاك حقوق الآخرين وتعاطي الظلم و...

٧. النقد الإجتماعي لبعض شرائح المجتمع العباسي؛ خاصة أصحاب الحرف والصناعات كالتجار والكتاب ومدعي بعض العلوم كالمنجمين والمتفلسفين وأرباب المذاهب والديانات ومدعي الزهد و....

٨. النقد السياسي اللاذع للسلطات العلياء؛ خاصة الخلفاء العباسيين الذين يرتكبون أنواع الذنوب ويدعون أنهم خلفاء رسول الله ويقتلون الأئمة الأبرياء .

قصارى القول أن إخوان الصفا في هذه القصة يدعون إلى مدينة فاضلة على أساس مذهب يجمع بين مختلف المذاهب والآراء من الشريعة الإسلامية إلى الفسلفة اليونانيه.

المصادر والمراجع

- آقاگل زاده، فردوس، تحليل گفتمان انتقادي، تهران، شركت انتشارات علمي وفرهنگي، چاپ اول، ١٣٨٥.
- إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء، بيروت، دارصادر، لا. ت.
- ايوب، عبدالرزاق؛ انعكاس الفكر السياسي على الادب العربي في العصر العباسي، دمشق، دار طلاس، الطبعة الأولي، ١٩٩٠.
- بدري الحربي، فرحان، الأسلوبية في النقد العربي الحديث: دراسة في تحليل الخطاب، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣.
- بهرامپور، شعبانعلی، درآمدی بر تحلیل گفتمان: گفتمان وتحلیل گفتمانی، انتشارات فرهنگ گفتمان، تهران، چاپ اول، ١٣٧٩ .
- التوحيدي، أبوحيان، الإمتاع والمؤانسة، بيروت، شركة أبناء الشريف الرضي، ٢٠٠٣.
- دورانت، ویل، تاریخ تمدن، عصر ایمان (بخش اول)، ابوطالب صارمی، ابوالقاسم پاینده، ابوالقاسم طاهری، تهران، انتشارات وآموزش انقلاب اسلامی، چاپ اول، ١٣٦٦.

Archive of SID

www.SID.ir

- الرويلي، ميجان وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٥.
- السجستاني، ابوسليمان المنطقي؛ صوان الحكمة، الدكتور عبدالرحمن البدوي، طهران، بنياد فرهنگ ايران، ١٩٧٤
- خراسانی شرف الدين، «اخوان الصفا»، دائرة المعارف بزرگ اسلامي، زير نظر كاظم موسوي بجنوردي، تهران، چاپ اول، ١٣٧٥.
- شعيري، حميدرضا، مباني معني شناسي نوين، تهران، سمت، چاپ اول، ١٣٨١.
- _____، تجزيه وتحليل نشانه-معنا شناسی گفتمان، تهران، سمت، چاپ اول، ١٣٨٥.
- شهرزوری، شمس الدين محمد بن محمود، نزهة الأرواح وروضة الأفراح (تاريخ الحكماء)، ترجمه مقصود علی تبريزی، تهران، انتشارات علمی وفرهنگی، چاپ اول، ١٣٦٥.
- ضيف، شوقی، عصر الدول الإمارات: الجزيرة العربية، العراق، إيران، القاهرة، دارالمعارف، الطبعة الثالثة، لا. ت.
- عضدانلو، حميد، گفتمان وجامعه، تهران، نشر نی، چاپ اول، ١٣٨٠.
- فريد حجاب، محمد؛ الفلسفة السياسة عند اخوان الصفا، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢.
- فيركلو، نورمان، « الخطاب بوصفه ممارسة إجتماعية »، رشا عبدالقادر، الآداب العالمية، السنة الخامسة والعشرون، العدد ١٠١ و١٠٢(مزدوج)، شتاء وربيع ٢٠٠٠. إتحاد الكتاب العرب بدمشق .www.awu-dam.net
- القفطی، أخبار العلماء بأخيار الحكماء. موقع الوراق www.Alwaraq.net.
- مكاريک، ايرنا ريما؛ دانشنامه نظريه های ادبی معاصر، مهران مهاجر ومحمد نبوی، تهران، آگه، چاپ دوم، ١٣٨٥.
- مک دانل، دايان، مقدمه ای بر نظريه های گفتمان، حسينعلی نوذری، تهران، فرهنگ گفتمان، چاپ اول، ١٣٨٠.
- ميرزايي، فرامز وناهيد نصيحت، « روش گفتمان كاوي شعر»، الجمعية الإيرانية للغة العربية وآدابها، شتاء سنة ١٣٨٤، العدد ٤.
- ياراحمدی، لطف الله، گفتمان رايج وانتقادی، تهران، هرمس، چاپ اول، ١٣٨٣.
- يقطين، سعيد، تحليل الخطاب الروائی، الدارالبيضاء، المركز الثقافی العربی، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٥.

Archive of SID

www.SID.ir

تحلیل گفتمان اخوان‌الصفا در قصه‌ی دادخواهی حیوان از انسان

هومن ناظمیان[١]

چکیده

تمدن اسلامی در قرن چهارم هجری در ابعاد مختلف فرهنگی وتمدنی در محلهٔ شکوفایی خود قرار داشت به‌گونه‌ای که فعالیت‌های علمی، فلسفی و ادبی در مشرق اسلامی از رونق بسیاری برخوردار بود. از جمله‌ی این فعالیت‌ها ظهور گروه سرّی اخوان‌الصفا در بصره وبغداد که معتقد بودند باید شریعت اسلامی را با فلسفه‌ی یونانی درهم آمیخت تا جهل وگمراهی که عارض شریعت شده، از آن پاک شود. آن‌ها دائرهٔ المعارف بزرگی به وجود آورند که شامل پنجاه ودو رساله وعقاید وتعلیمات خود را در قالب آن‌ها بیان کردند. آنان همچنین از ادبیات داستانی نیز برای بیان باورهای خویش سود می‌جستند؛ از جمله، قصه‌ی دادخواهی حیوان از انسان که در رساله‌ی بیست ودوم اخوان‌الصفا بیان شده است.

این داستان براساس ساختارهای فکری واعتقادی اخوان‌الصفا وآرا واندیشه‌هایی که اخوان‌الصفا در زمینه‌های گوناگون سیاسی، اجتماعی، فرهنگی وعقیدتی مطرح کردند مورد بررسی قرار گرفته تا گفتمان اخوان‌الصفا در این قصه تبیین شود. نتایج این پژوهش، نشان می‌دهد که گفتمان اخوان‌الصفا در این قصه، گفتمانی انتقادی است که بیشتر اقشار جامعه عصر عباسی به ویژه صاحبان سلطه را در برمی‌گیرد و شامل هشت محور است از جمله خردگرایی، آرمان‌گرایی وانتقاد سیاسی و اجتماعی از جامعه‌ی بشری به طور عام و جامعه عصر عباسی به طور خاص.

کلیدواژه‌ها: تحلیل گفتمان، اخوان الصفا، نقد اجتماعی، نقد سیاسی

---

١. استادیار دانشگاه تربیت معلم (خوارزمی) تهران (پردیس کرج)

Archive of SID

www.SID.ir